

الفصل الثالث

المواقف المختلفة من غزو الأعداء

بالنظر إلى ما يدور من الأحداث الخطيرة والمتسارعة والغزو المكثف لبلدان المسلمين اليوم، وما نشأ عنه من صراع بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر والنفاق، سواء ما كان منه غزواً عسكرياً للمسلمين في عقر دارهم، كما هو الحال في بلاد العراق وفلسطين وسوريا وأفغانستان، وما صاحب ذلك من التدايعات، أو ما كان منه غزواً فكرياً أو أخلاقياً كما هو الحاصل في عامة بلدان المسلمين الذي سبق تفصيله، أقول: بالنظر لهذا الغزو والصراع في ضوء سنة الابتلاء والتمحيص نرى أن هذه السنة الربانية الثابتة تجري وتؤثر أثرها بقدر الله ﷻ وحكمته؛ ألا وهو تمحيص المؤمنين وتمييز الصفوف، حتى تتنقى من المنافقين وأصحاب القلوب المريضة؛ وحتى يتعرف المؤمنون على ما في أنفسهم من الثغرات والعوائق التي تحول بينهم وبين التمكين لهم في الأرض، فيتخلصوا منها، ويغيروا ما بأنفسهم، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، فإذا ما تميزت الصفوف وتساقط المتساقطون في أتون الابتلاء، وخرج المؤمنون الصادقون منها كالذهب الأحمر الذي تخلص من شوائبه بالحرق في النار حينها تهب رياح النصر على عباد الله المصطفين الذين يستحقون أن يمحق الله من أجلهم الكافرين، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وقبل هذا التمحيص

والتمييز فإن سنة محق الكافرين وانتصار المسلمين التي وعدّها الله ﷺ عباده المؤمنين لن تتحقق.

هكذا أراد الله ﷻ وحكم في سننه التي لا تبدل: أن محق الكافرين لا بد أن يسبقه تمحيص المؤمنين، ولذلك لما سئل الإمام الشافعي رحمه الله: أيها أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ كان من دقيق استنباطه وفهمه لكتاب الله ﷻ أن قال: «لا يُمَكَّن حتى يبتلى»^(١)، ولعله فهم ذلك من قوله -تعالى-: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]. فإن الله ﷻ ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- فلما صبروا مكنهم.

وللتدليل والتأكيد على أن مجتمعات المسلمين تعيش اليوم حالة شديدة من الابتلاء والتمحيص والفتنة في هذه النوازل: أذكر بعض المواقف التي أفرزتها هذه السنة -أعني سنة الابتلاء والتمحيص- في خضم هذه الفتن المتلاطمة، ولم يكن لهذه المواقف أن تعرف ويعرف أهلها قبل حصول هذه الفتن، وقد ظهرت هذه المواقف مع أننا في أول السنة وبداية الابتلاء، فكيف يكون الحال في آخر الأمر، نعوذ بالله أن نرجع على أعقابنا أو أن نفتن، وفي ذكر هذه المواقف نصيحة وتحذير لِنفسي ولإخواني المسلمين من الوقوع فيها والاستعانة بالله ﷻ في الخروج منها لمن وقع فيها.

(١) ذكر هذا الأثر الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» (١/٢٠٨).

• الموقف الأول: موقف المنافقين والمرجفين:

النفاق داء عضال في الأمة، ولقد عانت الأمة في تاريخها الطويل ما عانت من الخيانات ومظاهرة الكافرين وكشف عورات المسلمين لأعدائهم، ومن عادتهم أنهم لا يظهرن إلا في أيام المحن الكبيرة والنوازل العظيمة التي تمر بالمسلمين، حيث يظهر الله عوارهم ويفضحهم ويكشف أسرارهم، وهذا من رحمة الله ﷻ وحكمته في حصول الابتلاءات، ومن ذلك ما كان منهم يوم الأحزاب يوم أن أحاط المشركون وحلفاؤهم بالمدينة، ونقضت اليهود عهدها مع رسول الله ﷺ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وعند ذلك نجم المنافقون والمرجفون والمعوقون ممن كانوا مندسين في الصف المسلم، ويكفينا في وصف حال المنافقين في هذه الغزوة قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿[الأحزاب: ١٢-١٤] إلى قوله - تعالى -: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨].

وها نحن في هذا الزمان نشاهد فريقاً منهم يقفون نفس الموقف الذي وقفه إخوانهم يوم الأحزاب؛ وذلك عندما رأى منافقو زماننا ما أحاط بالمسلمين من النوازل، ورأوا إخوانهم من الصليبيين يحيطون ببلدان المسلمين، فظهر نفاقهم وبدا للناس ما كانوا يخفون من قبل،

وأصبحنا نسمع منهم الإرجاف وترديد ما يقوله الكفرة الغزاة عن المجاهدين والدعاة الصادقين، وراحوا يجرضون عليهم ويشمتون بما يصيبهم من المحن والمصائب، وصاروا يبثون في الأمة اليأس من مقاومة الغزاة، ويحسنون الكفرة الغزاة في عيون المسلمين، ويستبشرون بمجيئهم ويساندونهم في تنفيذ مخططاتهم لغزو العقيدة والأخلاق، قال الله -تعالى- في وصف سلفهم من المنافقين الأولين: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الحشر: ١١].

وقال -سبحانه وتعالى- عن شامتهم بالمؤمنين، وإشاعة اليأس والإرجاف، وإساءة الظن بالله ﷻ ووعده: ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢].

ولم يعد خافياً على أحد ما يطرحونه في وسائل الإعلام المختلفة، وبكل وقاحة ودون حياء ولا خوف من الله ﷻ أو من الناس، وذلك فيما يتعلق بثوابت الدين، أو ما يتعلق بالمرأة وتغريبها والتحريض على خروجها ومخالطتها للرجال، والزج بها في أعمال لا تناسب طبيعتها، مما فيه مخالفة للفطرة والشريعة.

وليس المقصود هنا تتبع ما يفعله المنافقون والمرجفون في هذه السنوات الأخيرة، والمحن العصبية التي تمر بالمسلمين، وإنما المقصود التدليل على

أن سنة الله ﷻ في الابتلاء والتمحيص أنها تكشف وتفضح المنافقين، وتبرزهم في مجتمعات المسلمين، كما فضح الله ﷻ إخوانهم وسلفهم في غزوة الأحزاب، وغزوة أحد، وغزوة تبوك التي أنزل الله ﷻ فيها سورة كاملة، هي سورة التوبة التي من أسائها الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين وميزتهم، وهذه من الحكم العظيمة، والفوائد الجليلة لسنة الابتلاء؛ إذ لوبقي المنافقون في الصف المسلم دون معرفة لهم؛ فإنهم يشكلون خطراً وتضليلاً وتليساً للأمة، أما إذا عرفوا وفضحوا وتميزوا، فإن الناس يجذرونهم، وينبذونهم ويجاهدونهم بالحجة والبيان، أو بالسيف والسنان إن ظهر انحيازهم للكفار ومناصرتهم لهم، ووجدت القدرة على ذلك، وبذلك يتخلص المسلمون من سبب كبير من أسباب الهزيمة والفسل، ويتهيئون لنصر الله ﷻ وتأييده.

وها هي الأحداث في سوريا ومصر كم كان فيها من الخير في فضح المنافقين من الرافضة الباطنية أو العلمانيين والليبراليين الذين أظهروا كرههم وحقدهم للمسلمين الصادقين، وانحيازهم إلى خندق الكافرين المجرمين ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

• الموقف الثاني: موقف اليائسين والمحبطين والمخذلين

لما كشف أعداء هذا الدين من الكافرين وبطانتهم من المنافقين عن عدائهم الصريح وحرهم المعلنة على الإسلام وأهله، وعندما تعرض كثير من المسلمين ومؤسساتهم الدعوية والخيرية للمضايقة والأذى من الكفرة والمنافقة، شعر بعض المسلمين حينئذ بشيء من اليأس والإحباط

والخوف، وبخاصة لما قام شياطين الإنس والجن يثون وساوسهم وشبههم في تضخيم قوة الأعداء وأنها لا تقهر، وأن المنكرات عمت وطمت، ووسائلها سيل جارف لا يمكن مقاومته عندها: سيطر على بعض النفوس اليأس من ظهور هذا الدين والتمكين لأهله؛ فكان منهم فئة ظهر ضعف يقينها ومرض قلوبها في هذه الابتلاءات فشكت في ظهور هذا الدين، واهتز يقينها بوعد الله -تعالى- بنصرة دينه، وهؤلاء على خطر يهدد إيمانهم، ويخشى أن يقعوا في فتنة المنافقين الظانين بالله ظن السوء.

وفئة أخرى لم يساورها الشك في ظهور دين الله -تعالى-: ونصره لأوليائه، وإنما أصابها اليأس من ذلك في هذا الزمان، حيث رأت أن المسلمين اليوم غير قادرين على المواجهة لعدم تكافؤهم مع عدوهم، وعليه فلا داعي للمقاومة التي لا تفيد شيئاً، وإنما هي بمثابة المحرقة التي تحرق المسلمين وبخاصة المجاهدين منهم، والحل عند هؤلاء: الاستسلام للواقع أو اعتزاله، وانتظار معجزة ربانية من الله ﷻ كانتظار المهدي أو المسيح عيسى ابن مريم -عليه الصلاة والسلام-!! ولا يخفى ما في هذا التصور من الانحراف والشطط، وكم هو مفرح للكفرة والمنافقين مثل هذا التفكير ومثل هذه المواقف المستخذية التي تبث اليأس في نفوس المسلمين، وتعيقهم عن بذل الجهد في الدعوة ومدافعة الفساد والأخذ بالأسباب الشرعية والمادية للنصر على الأعداء.

وإن مواقف الخوف واليأس والإحباط ما كانت لتعرف لولا سنة الابتلاء والتمحيص. وظهر هذه السنة وعملها اليوم في حياة المسلمين

هي التي أفرزت وأظهرت مثل هذه المواقف، وفي ظهورها فائدة لأصحابها لعلهم أن يراجعوا أنفسهم، ويقلعوا عن هذه المواقف بعد أن اكتشفوا هذا المرض الكامن في نفوسهم بفعل هذه السنة، كما أن فيه فائدة أيضاً لغيرهم ليحذروا من هذه المواقف، ويحذروا ممن ينادي بها؛ قال الله -تعالى- في تحذير عباده المؤمنين من الوهن واليأس والإحباط: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال -سبحانه وتعالى- في وصف عباده الصابرين والموقنين بنصره ﷺ: ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَعَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وقال -سبحانه وتعالى- في وصف أصحاب محمد ﷺ لما تحزبت عليهم الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

• الموقف الثالث: موقف أهل الدنيا الراكنين إليها اللاهثين وراء حطامها، المتنافسين عليها

وأهل هذه المواقف هم الذين لا هم لهم إلا هذه الدنيا والتمتع بلذاتها، ولا هم لهم إلا أنفسهم وأسرهم، وتوفير متاع الدنيا الزائل لهم.

أما ما يتعرض له الدين وأهله من أذى وإفساد وابتلاءات فقد كشفت سنة التمحيص أن هذا ليس من همهم، بل قلوبهم باردة ساكنة ما دامت مساكنهم ومطاعمهم ومشاربهم سالمة لهم. ودورهم في نوازل الأمة أن يسألوا عن أخبارهم وما حل بهم، ولا يتجاوز الأمر ذلك، قال الله ﷻ عن أمثال هؤلاء: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠].

• الموقف الرابع: موقف المسيرين للواقع أهل الحلول الوسط

وهم الذين نظروا إلى شدة ما يصيب المسلمين في هذه الأزمنة من الأذى والتضييق والابتلاءات المتنوعة، فرأوا أن الثبات والصمود على ثوابت هذا الدين والصبر على أحكامه الشرعية، ومصادمة الواقع مما يصعب في مثل هذه الظروف؛ لأن أعداء هذا الدين لا يرضون بذلك، بل يوجهون حربهم إلى هؤلاء الثابتين الذين يطلقون عليهم تارة: الأصولية، وتارة: المتشددين، وتارة: الإرهابيين، والخطر في هذه المواقف الانهزامية أنها تغطي بشبه شرعية، ويحاول أصحابها أن يؤصلوا ضعفهم ومواقفهم هذه بأدلة، يزعمون أنها قواعد شرعية مع أنها غير منضبطة بضوابط الشرع ولا ملتزمة بمقاصده؛ كاستدلالهم مثلاً بالضرورة وأحكامها، وقواعد التيسير ورفع الحرج، وبالمصالح المرسله وغيرها، مما هي صحيحة في أصلها لكنها فاسدة في تطبيقها^(١).

(١) للرد على هذه الشبهات انظر كتاب «فاستقم كما أمرت» للمؤلف.

وعلامة أصحاب هذا الموقف أنهم يصفون أنفسهم أو يصفهم غيرهم بالمعتدلين أو التنويريين، وهذه المواقف ما كانت لتعرف لولا سنة الابتلاء التي تمحص وتميز الصفوف، ويكشف الله بها كوامن النفوس التي يعلمها الله مسبقاً، لكنه - سبحانه - يظهرها للناس بفعل سنة الابتلاء والتمحيص، وصدق الله العظيم: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

يقول الأستاذ إياس المزني واصفاً لهذه الحالة:

(تسربت إلى الساحة الإسلامية، واعتزت الفهم الإسلامي في الدعوة الاستعجال واستبطاء النتائج. ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هذا الحال، ضغط الجاهلية، وقوة وسائلها في الحيلولة دون الدعوة والوصول إلى أهدافها.

فإلى ماذا أدى هذا الموقف؟

الملاحظ: أنه أدى ببعض العاملين إلى الانسحاب والنكوص عن طريق الدعوة.. أما هذه النتيجة فليست من مقاصد الكلام، لأنها نتيجة واضحة، والموقف منها - تبعاً لذلك - لا يحتاج لكثير بيان، فهي - إذن - ليست محلاً للبحث في «ميزان الحكمة».

إن النتيجة الخطيرة والدقيقة لهذه العلة تتمثل فيمن يبقى مستمراً في طريق الدعوة، لا يُصرح بالخروج عنها، ولكنه يصاب بالملل من التمسك

وتأييداً لهذا الكلام فلتنظر إلى تجربة جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر، وتجربة حماس في غزة، وآخرها وأشدها مأساة تجربة الإخوان في مصر وانقلاب السيسي وزمرته العلمانيين على حكومة الإخوان المنتخبة، وتحويل البلاد إلى حمام دم ومعتقلات.

وقد أخبر النبي ﷺ أن المتمسك بدينه في آخر الزمان يعد غريباً بين الناس، ووصفه بأنه كالقابض على الجمر، وهذا الوصف لا يقدر عليه إلا أولوا العزم من المؤمنين الصابرين؛ قال ﷺ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «الَّذِينَ يُضْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ»^(١).

وقال ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ»^(٢).

ولا يخفى على من يراقب اليوم كثيراً من الفتاوى والحوارات التي تقوم بها بعض الصحف والمجلات والقنوات الفضائية ما تحمل من هذه المواقف المتتمعة، والتي يحاول أصحابها أن يتشبثوا بأدنى شبهة أو أدنى قول شاذ، يخالفه الدليل الصحيح من الكتاب والسنة، وهذه المواقف والفتاوى لم تقتصر على الأحكام فحسب، بل وصلت إلى أصول العقيدة وأركانها والتميع في تناولها، وبخاصة ما يتعلق بمسائل الإيمان والكفر

(١) تحفة الأحوذى (٢٣٦١) (٥٣٩/٦)، وقال الترمذي: حديث غريب. وقال الأرنؤوط في «جامع الأصول»: له شواهد يرتقي بها.
(٢) الترمذي (٤٢/٢)، وابن بطة في «الإبانة» (١٧٣/١)، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني بشواهد في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٧).

وحدودهما، أو بمسائل الولاء والبراء، أو ما يتعلق بالجهاد وأحكامه، والمقصود أن سنة الابتلاء والتمحيص التي نعيشها هذه الأيام قد أفرزت مثل هذه المواقف، والله عَزَّ وَجَلَّ الحكمة في ذلك؛ لأن في ظهورها خيراً لأهلها، لعلهم يحاسبون أنفسهم فيتخلصون منها كما أن فيها خيراً أيضاً لغيرهم حتى يحذروها ويحذروا منها.

• الموقف الخامس: موقف المتعجلين المغيرين بالقوة دون مراعاة لفقهِ الموازنات:

وهذا الموقف يقابل الموقف السابق وإن كان يجمعها استعجال النتائج واستبطاء النصر، فبينما ينحى الموقف السابق إلى التنازل عن بعض الثوابت والتعلق ببعض الشبهات والشذوذات الفقهية، يذهب أصحاب هذا الموقف إلى الطرف المقابل، حيث لم يصبروا على ما يرون من شدائد ومحن وابتلاءات توجه للمسلمين في دينهم وأعراضهم وعقولهم، ورأوا أن الموقف إزاء مثل هذه الابتلاءات هو المواجهة المسلحة، دون أن ينظروا إلى ما يترتب عليها من مفاسد كبيرة، ودون أن ينظروا إلى واقعية المصالح التي يسعى لتحقيقها من عدمها، فنشأ من جراء ذلك أضرار عظيمة عليهم وعلى الدعوة وأهلها في المحيط الذي تدور فيه هذه المواجهات.

وهنا أود التنبيه إلى أنه ليس المعني في هذه المواقف تلك الحركات الجهادية، التي تدافع عن المسلمين وديارهم في أفغانستان والعراق والشيشان وفلسطين وكشمير وسوريا وغيرها، ممن يقوم بجهاد الدفع عن ديار المسلمين المحتلة، وإنما المعني هنا أولئك الذي يرون المواجهة

المسلحة في بعض بلدان المسلمين قبل وضوح راية الكفر في تلك البلدان للناس، ودون وضوح راية أهل الإيمان في مقابل ذلك، ودون قدرة مما ينشأ عنه اللبس والتليس على الناس، فتختلط الأوراق ويجد هؤلاء المجاهدون المتحمسون أنفسهم وجهاً لوجه مع إخوانهم المسلمين، فحينئذ تقع الفتنة بين المسلمين، ويقتل بعضهم بعضاً، كما قد حصل في بعض بلدان المسلمين.

أما تلك الحركات الجهادية التي أعلنت جهادها على الكفار في العراق وأفغانستان لمواجهة التحالف الصليبي، أو في كشمير لمواجهة الهندوس والوثنيين، أو في الشيشان لمواجهة الملاحدة الشيوعيين، أو في فلسطين لمواجهة اليهود الغاشمين، أو في سوريا لمواجهة النصيرية والروافض الباطنيين، فإنها حركات مشروعة لوضوح الراية الكفرية ووجود القدرة، وزوال اللبس عن المسلمين في تلك الأماكن، كما أنه جهاد للدفاع عن الدين والعرض والمكان حتى لا ترتفع فيه راية الكفار.

والذي حملني على هذا التنبيه ما نسمعه -ويا للأسف- من بعض الفتاوى المتسرعة التي مفادها أن القتال ضد الغزاة الكفرة في سوريا والعراق وغيرها من بلدان المسلمين المغزوة عسكرياً هو قتال فتنة وتعجل وافتئات على الأمة، وهذا من صور الابتلاء الذي يتعرض له علماء الأمة في هذه الأزمنة.

جاء في إحدى افتتاحيات مجلة البيان مقال بعنوان ﴿وَلَا تَهْنُؤُوا وَلَا

تَحْزَنُوا﴾ يُلخّص فيه المواقف السابقة، وقد جاء فيه:

(ليس أضر على الدعوات من أن يتسرب اليأس إلى أفرادها، أو يصيبهم الوهن والضعف بسبب محنة أو ابتلاء، فهذا مرض قاتل حذر الله المسلمين منه بعد غزوة أحد، فخطبهم قائلاً: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فإن من سنة الله في الدعوات أن تنتصر وتنهزم، وتبتلى بالمصائب ونقص الأفراد والأنفس؛ لتكون دروساً قاسية يتعلم فيها المسلم أشياء لم يكن ليتعلمها بالوعظ والكلام.

لقد ابتليت الدعوات في هذه الأيام بتسلط الظالمين المفسدين يُؤزِّهم من ورائهم شياطين الإنس من كل ملة ودولة، بل إن المتتبع لما يجري على الساحة في أنحاء العالم الإسلامي ليجد تصميماً عجيباً على إقصاء الإسلام وإبعاده عن الفعل والتأثير، ويقابل ذلك دعوات مخلصية، ولكن مع تفرق في الصف الإسلامي، وضعف في الأخذ بالسياسة الشرعية المناسبة لكل حدث ومعرفة سنن الله في التغيير.

وقد علمتنا دروس التاريخ القديم والحديث أنه بعد الفتن والمحن يخرج أصناف من الناس إذا عرفنا توجهاتهم، فلعلنا نخرج بأقل الخسائر.

هناك صنف من الناس سيصاب بإحباط شديد وبصدمة عنيفة، فهو لم يتوقع أبداً ما يحدث ولم يُعد للأمر عدته، ولم يتعود إلا على سماع الأخبار التي يجبها، ذلك لأنه عاطفي خيالي، فهو يرى أن دولة الإسلام قاب قوسين أو أدنى لما يرى من كثرة المقبلين على هذا الدين، ولما سمع من أن الإسلام قادم (وهو قادم بإذن الله)، هذا الصنف لا ينقصه الإخلاص، ولكن تنقصه التجربة والوعي العميق بتاريخ الدعوة وتاريخ الدول، وأسباب النجاح والفشل.

فخرج في المقابل صنف ينقصه الفقه بمقاصد الشريعة، يقول: لا فائدة من الدعوة والعمل والكلام.. ولا يحل المشكلة إلا القوة، فهذا في الظاهر شجاع ولكن في الحقيقية يقوم بعملية هروب، ولكنه هروب إلى الأمام!

وصنف ثالث مخالف تماماً للنصف السابق، إنه في الطرف الآخر، فهو يرى أنه لا داعي إلى التضحيات والعمل الدعوي والتعاون مع إخوانه في سبيل الحق، فالقضية تحتاج إلى نفس طويل، وعودة إلى الكتب والقراءة من جديد والفكر، والحوار، وعدم العنف (والجهاد - عند هؤلاء - عنف!)، وهذا الكلام ظاهره فيه شيء من الحق وباطنه الهروب من الاستمرار والمواجهة.

إن العودة للنقد الذاتي والتعمق في فهم أخطاء الماضي شيء طيب، ولكن هذا الصنف - مثل المرجئة - إنما يريد الهدوء وراحة البال.

وظهر صنف رابع هو من أخطر هؤلاء، هذا الصنف كان يكتف حبه الظهور والرئاسة؛ لأن الوقت غير مناسب أو كان مندساً بين الصفوف، وقد لاحت الآن الفرصة ليتقرب من أصحاب الشأن، ويقدموا لهم فتات الموائد، وإن من فوائد المحن وحكم الابتلاء ظهور مثل هذا الصنف حتى تتمحص الصفوف ويُعرف الكاذب الدعي من الصادق المخلص.

سيبقى أعداد كثيرة - بإذن الله - على الحق سائرون، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم^(١).

(١) مجلة البيان العدد (٤٢).

وفي ختام ذكر هذه المواقف المختلفة إزاء مظاهر الغزو والكيد لهذا الدين من الكفار والمنافقين يحسن التنبيه إلى سنة ثابتة من سنن الله ﷻ يناسب ذكرها في هذا المقام، ألا وهي:

سنة الإملاء والاستدراج للكفار والمنافقين:

قال -تعالى-: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨١﴾ وَأُمَلِّ لَهُمْ آيَاتٍ كِيدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وقال -سبحانه-: ﴿فَذَرَّهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمَدِّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤-٥٦].

وهذه السنة الإلهية تجري بقدر الله في هذه الأوقات؛ وذلك في معسكر أهل الكفر والنفاق؛ وبخاصة أولئك الذين بلغ بهم الكبر والغطرسة والظلم والجبروت مبلغاً عظيماً، ونراهم يزدادون يوماً بعد يوم في الظلم والبطش والكبرياء، ومع ذلك نراهم ممكنين ولهم الغلبة الظاهرة، كما هو الحال الآن من دولة الكفر والطغيان أمريكا؛ حيث ظلمت وطغت، وقالت بلسان حالها ومقالها: من أشد منا قوة، وكما هو الحال من دولة اليهود في فلسطين، وما يجري من مذابح مروعة في سوريا ومصر وبورما والعراق وغيرها.

وقد يحيك في قلوب بعض المسلمين شيء وهم يرون هؤلاء الكفرة ييغون ويظلمون، ومع ذلك هم متروكون لم يأخذهم الله بعذاب من عنده،

لكن المسلم الذي يعرف ربه بأسمائه وصفاته الحسنی، والذي يفقه سنن الله ﷺ ويتأملها ويرى آثارها وعملها في الأمم السابقة لا يحيك في نفسه شيء من هذا، لأنه يرى في ضوء هذه السنة أن الكفرة اليوم وعلى رأسهم أمريكا وحلفاؤها من الغرب هم الآن يعيشون سنة الإملاء والاستدراج التي تقودهم إلى مزيد من الظلم والطغيان والغرور، وهذا يقودهم إلى نهايتهم الحتمية، وهي الهلاك والقسم في الأجل الذي قد ضربه الله لهم قال -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ الْأُمَّةَ قَدْ أَهْلَكْنَا لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

يقول صاحب «الظلال» رحمه الله عند هذه الآية السابقة الذكر من سورة آل عمران:

(وفي هذه الآية يصل السياق إلى العقدة التي تحيك في بعض الصدور، والشبهة التي تجول في بعض القلوب، والعتاب التي تجيش به بعض الأرواح، وهي ترى أعداء الله وأعداء الحق، متروكين لا يأخذهم العذاب، ممتعين في ظاهر الأمر، بالقوة والسلطة والمال والجاه! مما يوقع الفتنة في قلوبهم وفي قلوب الناس من حولهم، ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يحسبون أن الله -حاشاه- يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان، فيملي له ويرخي له العنان! أو يحسبون أن الله -سبحانه- لا ينصر الحق على الباطل ويدع الباطل أن يحطم الحق،....! أو يحسبون أن هذا الباطل حق، وإلا فلم تركه الله ينمو ويكبر ويغلب؟ أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض، وأن ليس من شأن الحق أن ينتصر! ثم يدع المبطلين الظلمة

الطغاة المفسدين، يلجون في عتوهم، ويسارعون في كفرهم، ويلجون في طغيانهم، ويظنون أن الأمر قد استقام لهم، وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم!!!

وهذا كله وهم باطل، وظن بالله غير الحق، والأمر ليس كذلك، فالله -سبحانه وتعالى- يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن، إنه إذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم الذي يسارعون فيه، وإذا كان يعطيهم حظاً في الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه؛ إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء فإنما هي الفتنة، وإنما هو الكيد المتين، وإنما هو الاستدراج البعيد: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة بالابتلاء الموقظ لابتلاهم، ولكنه لا يريد بهم خيراً وقد اشتروا الكفر بالإيمان، وسارعوا في الكفر واجتهدوا فيه! فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم الله من هذه الغمرة -غمرة النعمة والسلطان- بالابتلاء! ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

والإهانة هي المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء.

وهكذا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة للمؤمنين لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير، فإذا أصابت أوليائه فإنما تصيبهم لخير يريد الله لهم -ولو وقع الابتلاء مترتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء- فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف، وفضل الله على أوليائه المؤمنين^(١).

(١) انظر: «تفسير في ظلال القرآن» (٦/٢).

ويقول في موطن آخر:

(وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر، ممكناً له في الأرض، غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون؛ إنهم يرون أول الطريق أو وسطه، ولا يرون نهاية الطريق. ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفردية القصيرة - نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة، ويحسبونه نهاية الطريق!)^(١).

إذن فمن حكمة الله ﷻ في سنة الإملاء للكافرين أن يمكنهم في هذا الإملاء، ليزدادوا إثماً وطغياناً يندفعون به بعجلة متسارعة إلى نهايتهم التي فيها قصمهم ومحقهم، وقد بدت بوادر المحق في الكفار والحمد لله رب العالمين، والله ﷻ بمكره وكيده للكفار قد أغفلهم عمّا يترتب على حماقاتهم وطغيانهم؛ لتحقق عليهم سنته في محق الكافرين وهلاكهم، كما أن من حكمته - سبحانه - في إملاء الكافرين وظلمهم وتسلطهم على المسلمين تحقيقاً للسنة التي سبق الحديث عنها، ألا وهي سنة الابتلاء والتمحيص للمؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

فذكر الله - سبحانه - التمهيص قبل المحق ولو محق الله الكفار قبل تهيأ المؤمنين الممحصين، فمن يخلف الكفار بعد محقهم؟ إن الله ﷻ حكيم

(١) المصدر نفسه (٢/ ٤٧١).

عليهم. فلهذا عجل الحكمة في وضع السنتين سنة الابتلاء وسنة الإيماء في آيتين متلاحقتين في سورة آل عمران؛ قال -تعالى-: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا ۚ وَهُمْ وَعَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ثم قال سبحانه بعدها: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تَوَمَّنُوا ۖ وَتَتَّقُوا ۖ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

• الموقف السادس: الموقف الحق الموفق إزاء غزو الأعداء، وهو موضوع الفصل الآتي (الفصل الرابع).

